مصرع هرة

للأستاذ عبد الحميد العبادى

كانت لنا هرة لطيفة ، ظريفة ، خفيفة الجسم ، مرهفة الحس ، طوافة بالليل ، جوالة بالنهار ؛ وكان أولادى يحبونها هى وصغارها الثلاث ، ويحبونها بالفضل من طعامهم ، والكثير من عبثهم ؛ وعلى مر الأيام نشأت بين صغار الأنس وصغار الحيوان ألفة جعلت كلا يحتمل عبث كل ، ويجد فى ذلك لذة ومتاعاً

وشاء حر القاهرة الذى اتقدت جذوته فى أوائل الشهر المنصرم أن ينتجع أولادى بعض السواحل فراراً من وقدة الحر ، وابتراداً بهواء البحر وماله ؛ وشاءت ظروفى الخاصة أن أبقى فى القاهرة وحيداً إلا من خادم يرعى شؤونى إذا حضرت ، ويحرس المنزل إذا غبت . فافتقدت الهرة وصغارها بتبدل الحال ما اعتدته من الطعام إلا قليلاً يمسك الرمق ويستبقى الحياة

وكأن الهرة استشعرت شيئاً من الأنفة والإباء ، فلم ترض بالدون ، ولم تصبر على الهون ، وانطلقت تضرب فى الأرض تبتغى سعة الرزق لنفسها ولصغارها ، فكانت تعود من حين لآخر مطبقة فمها على مسلاخ أرنب ، أو مشاش عظم ، أو عصفور اقتنصته فى بعض الحدائق ، فتجمع صغارها على ما وفقت له من الرزق ، فيكون لهن منه عوض عما فقدن من الزاد

وأحبت الهرة أن تعود صغارها السعى معها فى كسب القوت ، فكانت تبرز خارج الدار وتناديهن فيتسارعن اليها ، متواثبات ، شاتلات الأذناب ، مؤللات الآذان ، محدقات العيون ، فيجمعن جميعاً خلال الحديقة ، فلا يعدمن صرصراً أو جرادة يتبلغن بها بعد أن يلعبن بها طويلاً

ودرجت الأيام على تلك الحال ، وكأن القطط استطبن حياة السعى ، وذقن حلاوة الرزق المجلوب بالجد ، فعدن لا يأبهن لما كنت أرفدهن به من وقت لآخر من كسرة خبز ، أو نثبة لبن ، أو عرق لحم ينهسنه ، أو عظمة يتعرفنها

* * *

غير أن صروف الأيام لا ينجو من كيدها إنسان ولا حيوان ، ولا يسلم من آفاتها من يمشى على اثنتين ، وما يدب على أربع .

فقد كنت ذات يوم جالساً فى منزلى وقت الظهيرة ، وكنت ضيق الصدر ، نفس النفس ، كأنما أتوقع حدثاً يحدث ، أو خطباً يلم ، وإذا بى أبصر الهرة تلج من باب الدار بهيئة أنكرتها : أبصرتها تمشى متخلجة ، متخلعة ، تخالف بين يديها ورجليها ، وتقوم وتقع ، وتصطدم بما يلقاها فى طريقها ، فأثبتها النظر ، فرأيت ، وما أفظع ما رأيت ! رأيتها مشجوجة شجاً قبيحاً ، فأدركت من فورى أن فظاً غليظ القلب ، عمداً من طباخى الحى قد أعنته الهرة فى طلاب العيش ، فأهوى إلى رأسها بسكينه ، فشتر إحدى عينيها ، وكاد يشطر الرأس شطراً

وأدركت أن المسكينة تحاول الوصول ، على ما بها ، الى صغارها ، فطفقت أجمعهن لها من هنا وهنا ، وما هى إلا أن أحسسنها حتى تحوّلت عليهن ، ترضعهن وتمسحهن بلسانها على عادتها . فلما جن الليل جعلت أريد الهرة على الخروج من المنزل ، لعل برد هواء العشى ونسيم السحر ينفعها ، ولكنها رفعت الى رأسها وكأنها تستعفينى من الخروج ليلتها تلك ، ولأقض بعد ذلك ما أنا قاض . فنزلت على وحى حالها ودلالة منظرها ، وانصرفت الى مضجعى . فلما كان الصباح إذا بى أضحو على مواء موجع صادر من الهرة ، فأسرعت إليها فوجدتها تعالج سكرات الموت ؛ وما هى إلا لحظة حتى غدت جثة هامدة لا حراك بها . كل ذلك والقطيطات حيال ذلك المنظر الذى لم يعرفنه بعد ، مبهوتات صامتات مأخوذات . وكأنهن وقد سكنت حركة أمهن يتمثلن بالشعر الذى وضعه الشاعر الانجليزى ، بيرون ، على لسان (قابيل) عند ما رأى أخاه (هابيل) ميتاً ، ولم يكن رأى الموت قط :

أخى ! ماعراك ؟ وكنت الفتاة ... ذكى الفؤاد ، قوى البدن
على العشب ملقى ، فماذا دهاك ؟ ... أنوم ، وما الوقت وقت الوسن ؟
سكنت ، وأمسك منك اللسان ... وهل مات حى إذا ما سكن ؟
ألا ما هلكت ! وإن كان فى ... شحوبك معنى يهيج الحزن[1]

نعم ! لقد كان فى تغير حال الهرة الميتة معنى هاج حزن القطط ، فقد لذن بأركان المكان واجمات ، ولو ألهمن النطق لتمثلن بقول النابغة :

من يطلب الدهر تدركه مخالبه ... والدهر بالوتر ناج غير مطلوب
ما من أناس ذوى مجد ومكرمة ... ألا يشد عليهم شدة الذيب
حتى يبيد على عمد سراتهم ... بالنافذات من النبل المصايب

(١) كتاب (مبادئ الفلسفة) ترجمة الأستاذ أحمد أمين

إني وجدت سهام الموت معرضة بكل حتم من الآجال مكتوب

* * *

وثارت نفسي لهذا المنظر الأليم ، وذكرت قسوة الانسان على العجماوات مع أنه مستأمن عليها ، مستحفظ لها ، مسؤول عنها . وذكرت ما جاء في صحيح الأثر من أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها ، فلا هي أطعمتها ، ولا هي أسقتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض . وذكرت قول الرسول العربي : « إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور » : ونهيه عليه السلام أصحابه عن اقتعاد الرحال في المجالس حتى لا يعلق بها شوك يؤذي الابل عند ما توضع على ظهورها ، وقول عمر لرجل رآه يعنف بماشية يسير بها ليذبحها : « ياهذا سقها الى الموت سوقاً رفيقاً » ، وذكرت رسالة (الحيوان والانسان) التي ختم بها إخوان الصفاء رسائلهم ، وكيف ذهبوا فيها مذهباً لطيفاً في التدليل على أن الانسان في حقيقة الأمر حيوان من الحيوان ، لا يفضل غيره من الأنواع إلا بالعمل الصالح المنجي له في الدنيا والآخرة . ذكرت كل ذلك فعلمت أن البون لا يزال عندنا شاسعاً بين القول والعمل ، وأن المبادئ الجميلة لا تزال الى حد بعيد مجرد حبر على ورق ، وذلك من سوء حظ الانسانية الصحيحة

أما بعد ! فلا تبعدي أيتها الهرة المظلومة ! فكأس المنية لا تبرح دائرة على الخلائق ، يشرب بها الرفيع والوضيع ؛ وسيان في حكمها من يمشي سوياً وما يمشي مكباً على وجهه . إن الموت لمصري واحد ، ولكن الموتات تختلف ؛ وموتتك أيتها الهرة ؛ من أشرف الموتات . لم تموتي حتف أنفك ، ولم تموتي في مسعى باطل . لقد قضيت جاهدة ، مجاهدة ، وذهبت في ريعان عمرك ضحية الواجب ، والسعي الصالح . إذا طالت الأعمار بأقوام رضوا بالهوان والمسكنة ، وآثروا العافية المذلة على الجهاد المشرف . نعم ، إنك لم تجدي في هذا العالم من ينصفك ، ويطلب بثأرك ، ولكنك واجدة عند القوة الممسكة لهذا الكون خير الجزاء . ألم تدخل امرأة النار في هرة أماتتها ظمأ وجوعاً ؟ أليس معنى أن الانسان إذا تجرد من الرحمة فهو عند الله أحط شأناً من العجماء ، وأن الله لا يستحي أن ينقصها منه إذا طغى عليها وتجبر ؟ ألا كفى بذلك للنفس ، لو تعلمين ، تأساء وتعزية ؟

١٩٣٦/٩/٨ عبد المجيد العبادي

الجانب الصوفي
في الفلسفة الاسلامية[1]
للدكتور ابراهيم بيومي مدكور

— ٢ —

عني الفارابي كل العناية بموضوع السعادة علما وعملا ، فخصه بكتابين من كتبه شرح فيهما مختلف آرائه الصوفية ، وبين الوسائل الموصلة إلى السعادة ؛ وهذان الكتابان هما : تحصيل السعادة ، والتنبيه على السعادة ، اللذان طبعا في حيدرآباد سنة ١٣٤٥ و ١٣٤٦ هـ ، وقد امتازا — مقرونين إلى الرسائل الفارابية الأخرى التي وصلت الينا — بغزارة مادتهما ووضوح أسلوبهما ؛ وحبذا لو فكرنا في اعادة طبعهما بمصر . ولم يكتف الفارابي بهذه الدراسة النظرية ، بل جد في أن يتذوق السعادة بنفسه ، وأن يصل بتفكيره وتأمله إلى مرتبة الفيض والالهام كما صنع أفلوطين من قبل . ويقال إنه حظي بذلك مرة أو مرتين

وواضح أنه ليس في مكنة الناس جميعاً الصعود إلى مرتبة هذه السعادة ، ولا يبلغها إلا النفوس الطاهرة المقدسة التي تستطيع أن تخترق حجب الغيب وتصعد إلى عالم النور والبهجة . يقول الفارابي : « الروح القدسية لا تشغلها جهة تحت عن جهة فوق ، ولا يستغرق الحس الظاهر حسها الباطن ، وقد يتعدى تأثيرها من بدنها إلى أجسام العالم وما فيه ، وتقبل المعلومات من الروح والملائكة بلا تعليم من الناس ، والأرواح العامية الضعيفة إذا مالت إلى الباطن غابت عن الظاهر ، وإذا مالت إلى الظاهر غابت عن الباطن ... وإذا اجتمعت من الحس الباطن إلى قوة غابت عن أخرى مثل البصر يُخَيِّل بالسمع ، والخوف يَشغَل عن الشهوة ، والشهوة تشغل عن الغضب ، والفكرة تصد عن الذكر ، والتذكر يصير عن التفكر ، أما الروح القدسية فلا يشغلها شأن عن شأن »[2]

(١) اضطرنا سفر مغانينا إلى أوربا لقطع هذه السلسلة التي بدئت في العدد ١٥٧ من أعداد الرسالة ، فمعذرة إلى القراء

(٢) الفارابي ، الثمرة المرضية في بعض الرسالات الفارابية ، ص ٧٥